الفصل الاول

تمهيد ومقدمة

بقلم شارلز سكنر

الحياة وعملية التوافق

يُعرّف علم الأحياء أو « البيولوجيا » الحياة بأنها نظام دائم التفاعل فيما بين الكائن الحي وبين البيئة التى يعيش فيها . ويستمر هذا التفاعل والتعامل بينهما حتى يصل الحال إلى التوازن والتوافق . فاذا اختلّ هذا التوازن بذل الكائن الحي كل جهد ممكن لتغيير الحال حتى تعود الأمور إلى ما تقتضيه من توازن وتوافق بين الكائن الحي وبيئته . وفي كل كائن حي عوامل داخلية منها الدوافع والحوافز والرغبات والضغط والتحريض والحث ، تعمل كلها على استخلاص استجابة مناسبة تؤدي إلى عودة حالة التوازن السالفة . وتشمل الاستجابة : التفكير والوجدان والانفعال والحركة وما إلى ذلك مما يشبع الرغبات ويلبى الدوافع الداخلية .

نرى إذاً أن ما يأتيه الكائن الحي من تصرفات ليضبط ما اختل من توازنه وليوفق فيما بينه وبين بيئته المضطربة هو عمل موجه نحو هدف معين فهو إذاً عمل فعّال يسعى لغرض . ونرى أيضاً أن جميع العوامل الداخلية من دوافع وحوافز ورغبات تقصد هدفا وتبغى الحصول على استجابة تناسب الحال الناشئة .

ينطبق ما قلناه الآن على الكائنات الحية عموماً ، أما فى حالة الإنسان فلا يمكن تحديد معظم الأهداف وتحقيق الحلول المطلوبة إلا إذا رجعنا إلى المحاولات الذهنية أو العقلية التى منها التفكير والتأمل . وقد لا يمكن الوصول إلى بعض الغايات المعقدة إلا بالإرشاد الناتج عن الخبرة .

وفى بعض الأحوال لا يقنع الإنسان باتباع نظام معين عرفه وتعود عليه . فقد

يحاول له أن يبدّل و يغيّر فى معلوماته وخبرته وتجاربه لكي يقف على حلول جديدة ويكشف عن طرق مبتكرة . فحالات من هـذا النوع تتضمن صفات كثيرة منها الابتكار والاختراع والتحلى بالطابع الشخصى تعرف بالعمل المبتكر المنتج . وقـد عرّف هوبكنز (Hopkins) العمل الإبداعى المنتج بأنه : « العمل الذى يخلق فكرة جديدة ، أو رأيًا حديثًا ، أو حلاً غير معروف ، أو تحليلا مبتكراً ، أو تركيبًا جديداً » وإنه بمثل هذا العمل الإبداعي والخبرة المبتكرة يتسنى للفرد أن يواجه معضلات الحياة بنظام جديد ، وأن يحل المسائل بطرق لم يستعملها من قبل ، وأن يتصرف فيها تصرفًا مبتكراً .

ثم أن كل جديد يتعلمه الكائن الحي وكل خبرة ، يحدثان تغييراً ثابتًا فى تركيب الأعضاء الحية ، و يؤثران فى تكوينها مما يظهر أثره حتماً فى كل ما يأتيه هذا الكائن الحي بعدئذ .

ومن الأمور الأساسية المهمة التى يحسن ذكرها فى هذا المجال أن المرء فى أي وقت لا يتعلم أمراً واحداً كما يظن البعض ، بل إنه يتعلم أموراً عديدة وأشياء كثيرة مختلفة . وعلى ذلك نرى أن التعلّم والتوازن والتوافق عمليات مستمرة فى تأدية وظائفها ثم إن التعلم فى أى لحظة من لحظات الحياة أمر متنوع كثير الشعب متعدد النواحى مما يبيّن تعقد هذا النظام وصعوبته .

التربية عمل وحركة

علمنا أن الحياة نظام يعمل باستمرار ، من مميزاته الحركة والتدرج والإنتاج المفيد . ونقول الآن إن النمو أو النضوج وكذلك التعليم تتضمن أيضًا مميزات كمميزات الحياة وتتفق جميعًا فى أنها عمليات فعالة . وما التربية والتعليم إلا حالة خاصة من النظام الاجتماعى أعدته الهيئة الاجتماعية لتدريب الأفراد و إعدادهم للحياة فى المجتمع المحيط بهم ، وتهيئتهم لمواجهة البيئة التى سيعيشون فيها . فالتربية إذاً ترمى الى تنظيم المعارف ونشر الثقافة . وتطرق التربية أبواب جميع الهيئات والأنظمة الاجتماعية لتؤدي رسالتها العامة غير أن لها نظاماً خاصاً يتجلى فى المدرسة .

التربية نتيجة

نعود الآن لنقول إن التربية نتيجة ، لأنها تنتج عن النمو والتعلم والخبرة ، فتكسبنا المعارف والمعلومات والعادات والمهارة والميول والمبادىء ونظم التفكير والقدرة على التقدير الفني . أما الخبرة فتشمل إدراك المرء وشعوره وتفكيره وتصميمه وإبداعه فى عمله .

و إنه من الممكن -ضمن حدود معينة - قياس الأثر الذي يتركه التعليم في المرء . وبناء على هذا الرأي نشأت الامتحانات والاختبارات والمقاييس . وما كانت غاية « فن الاختبار والامتحان » إلا خلق حالات معينة لكي يواجهها الفرد و يتصرف فيها ثم نقيس تصرفه أو سلوكه فنعلم مبلغ تحصيله ومستواه . وفائدة هذه المقاييس أنها تعين المدرس على حسن اداء وظيفته وتساعده على الوصول إلى الغاية التى يسعى إليها .

و يعتمد التعليم من الناحيتين العلمية والفنية لكي يحصل على النتائج التهذيبية المرغوبة - على إعداد الأحوال المناسبة حتى تأتى الاستجابات والتلبيات ضمن الخطط المرسومة المبتغاة .

وتشمل الأحوال المناسبة لتوجيه عمليـة التعليم الوسائل التى تستعمل لتنبيه الأستجابة و إرشادها . نذكر من هذه الوسائل الكلام الشفهي والمطبوع والصور وغير ذلك من عوامل مادية .

وما الصور المتحركة والمسارح والاذاعة اللاسلكية والصحافة ودور الكتب العامة والملاعب الرياضية والمدارس والهيئات الدينية والبيوت والنوادى ، إلا هيئات منظمة أعدتها الهيئة الاجتماعية لكي تقوم بعملها لتربية الأطفال والناشئة حتى يتم توافقهم فى نظام اجتماعي دائم التغير .

أغراض التربية

ولا يمكننا تحديد أغراض التربية وغاياتها تحديداً تاماً لأن هذه الأغراض غير ثابتة وتتوقف على أحوال الفرد نفسه،وما تحتاج اليه الهيئة الاجتماعية،فقد رأى البعض

أن التربية « عملية توافق » ، ورأى آخرون أنها « تربية الكفاية الاجتماعية » ، وقال غيرهم انها « تنمية الشخصية » وقال آخرون أن التربية لا تستوفي معناها إلا اذا شملت هذه العمليات جميعاً[١] .

تعريف التعليم

التعليم هو حث التلميذ و إلهامه وارشاده ليعمل وحده وليجرب بنفسه حتى يحصل على فوائد معينة وينمو نمواً محسوساً بدنياً وأخلاقياً

وتسعى المدرسة التقليدية فى الوصول الى هذا الهدف بأن تقوم باختيار المنهج الدراسى وتنظيمه وتطبيقه على التلاميذ وهى المسئولة عن جميع الأعمال ، التى هى فى المقرر أو خارجة عنه ، ثم أنها تقوم أيضاً بتوجيه كل عمليات التعليم وقياس النتائج كما أنها تشخص عجز التلاميذ وتحلل صعوباتهم لكى تصف العلاج اللازم .

أما المدرسة الناهضة فهي التى تتولى إعداد الوسط المناسب وتهيىء البيئة الصالحة وتعتمد على غايات التلميذ نفسه لتشجعه على العمل ولترشده الى المحاولات اللازمة لكى يحصل على أغراضه الشخصية و يصل الى غاياته الفردية الخاصة .

---

(١) المعرب : نذكر هنا المبادىء الأساسية التى وضعتها لجنة التربية والتعليم الوطنية فى أميركا كغايات أصلية للتربية والتعليم

١ ــ التربية الصحيحة للعقل والجسم
٢ ــ إتقان المعارف الأساسية ــ القراءة ، والكتابة ، والحساب
٣ ــ المعيشة البيتية الفاضلة
٤ ــ التدريب لمهنة أو حرفة للتعيش من ورائها
٥ ــ التربية الوطنية الصالحة لمعرفة الفرد ما له من حقوق وما عليه من واجبات
٦ ــ كيفية استعمال أوقات الفراغ والاستفادة منها
٧ ــ الأخلاق القويمة

أما الوسائل التى تستعمل للوصول الى الكفاية الفردية والمقدرة على الخدمة الاجتماعية فتشمل الأمور الآتية :

(١) المواد المقررة الداخلة فى المنهج الدراسى وتشمل الكتب والخرائط والاذاعة اللاسلكية والصور المتحركة والمسائل والمشروعات والوحدات التعليمية والأعمال ونواحي النشاط وغير ذلك .

(٢) الطريقة التى تستعمل لتقديم هذه المواد الى الطفل ، والوسيلة التى يعتمد عليها في اظهار غاياته ، ورغباته ، وأعماله

(٣) شخصية المعلم وغيره من الأفراد الذين يتصل التلميذ بهم

(٤) نوع الادارة والنظام وسير العمل

(٥) جميع العوامل التى توجد خارج المدرسة مما يؤثر فى التلميذ ويوجه نموه .

وفى كثير من الأحيان يتساءلون : هل التعليم علم أو فن ؟ . ومما لا ريب فيه أن الوجهة العلمية فى التعليم آخذة فى الازدياد لسببين : أولا الاكتشافات العلمية الجديدة التى تضاف باستمرار الى علوم النفس والاجتماع والحياة . وثانيا زيادة ميل المربين لاستعمال الطرق العلمية فى دراسة وتحليل ما يواجهونه من معضلات خاصة بعملهم .

وعلى هذا يتحتم على كل معلم ناهض أن يلم ببعض المعلومات ويُتقن بعض الشئون فى هذا الباب حتى ينجح فيما يؤديه من عمل . هذا فضلا عن تمام معرفته الهدف الذى يسعى اليه من ممارسته لمهنته .

وينبغي على المعلم أن يكون ملمًا بالمادة التى يدرّسها ، وأن يكون عارفا بنظام تقديمها لتلاميذه والطريقة التى يستعملها للوصول الى هدفه . وأهم ما يجب على المعلم معرفته هو شخصية المتعلم نفسه وتكوينه الجثمانى وطريقة التعلم نفسها وماذا يجرى فى أثناء ذلك . فان جميع هذه النواحي فى التربية ، وكل معرفة منظمة يقصد منها زيادة معلومات المعلم ، وتقوية فهمه لتكون له اليد العليا والسيطرة المطلقة فى عمله وليمكنه التأثير فى المتعلم التأثير المطلوب حتى يأتي بالنتيجة المرغوبة . هذا ما يرمي اليه علم التربية والتعليم .

أما فن التربية فانه يهتم بكيفية الحصول على التغييرات المرغوبة فى سلوك الانسان ويسعى وراء تطور المعلومات ، والمهارة ، والميول ، والرغبات ، والمبادىء ، ثم يعمل على تنميتها وتقدمها . والمعلم المتفنن هو الذى يأخذ أولا بالمبادىء العلمية اللازمة لفنه حتى لا يرتكب أخطاء كان يمكن تلافيها .

علم النفس التعليمى

يهتم علم النفس العام بالاستجابات الناتجة عن كل نوع من الاحوال التى تخلقها الحياة . أما علم النفس البشري فانه يهتم بالاعمال التى تشمل الانتباه ، والحس ، والتخيل العقلى ، والشعور ، والتفكير ، والوعي ، والفعل . أما علم النفس الخاص بشئون التربية والتعليم فانه لا يهتم بغير خبرة الانسان وسلوكه مما يأتيه استجابة لأحوال تهذيبية .

وتتكوّن الغاية الأصلية فى علم النفس الخاص بالتربية من مجموعة حقائق ومبادىء تمكن المعلم من الحصول على أغراضه الثقافية والمهنية .

ثم إننا لو عمدنا الى تحليل الغاية الكبرى التى يسعى إليها علم النفس الخاص بشئون التربية والتعليم لأمكننا الحصول على غايات أخرى متعددة قد تكون كل منها غاية خاصة فى حد ذاتها . نذكر فيما يلى بعض هذه الغايات الأكثر أهمية .

(١) تبين أبحاث علم النفس فى التربيه والتعليم تطور الفكرة وتقدم العقيدة فى أن النمو حالة يمكن تحسينها ، كما يمكن اكتساب المعلومات والمعرفة ، والعمل على تقدم السلوك الاجتماعى وتوافق الشخصية . والعمل على تحقيق هذه الغايات يرفع من شأن الحقائق التى يقدمها علم النفس الخاص بالتربية والتعليم إلى المدارس ويزيد فى تقدير فائدتها ومن ثم يؤكد قيمة المعلومات التى يتضمنها هذا العلم .

(٢) تساعد على تكوين أغراض التربيـة ومستواها وتعمل على تحديدها بالنسبة إلى السلوك المرغوب فيه مما يجب أن يكون هدفا لجميع المجهودات التعليمية . فاذا علم المدرس النتائج المرغوبة أمكنه أن يعد الاحوال المناسبة (المنهج الدراسي وطرق التدريس الخ) التى تضمن له الحصول على التغييرات التى يريدها

(٣) تساعد على تكوين خطة محايدة نحو الأطفال غير أن هذه الخطة تكون ملأى بالعطف ومشبعة بالحنو وتعمل على مشاركتهم فى الشعور حتى يمكن معاملتهم والحكم على سلوكهم من وجهة موضوعية والعمل على احترام شخصياتهم فى كل وقت

(٤) تعين على تحسين فهم طبيعة العلاقات الاجتماعية وأهميتها ، وتبين طرق تنمية العوامل الاجتماعية ووسائلها فى الأطفال مثل السلوك مع الغير والاشتراك فى الأعمال الاجتماعية التعاونية

(٥) تقدم مجموعة من الحقائق والمبادىء التى يمكن استعمالها فى حل مسائل التعليم وتبين كيفية اختيار المواد الدراسية وتنظيمها فى سلسلة تدريجية بحيث تكون كل حلقة من مشروع يتضمن معضلة يلزم حلها أو من وحدة فيها مسألة تستوجب الايضاح . ثم تبين بعد ذلك كيف يمكن الارشاد فى عملية التعلم حتى لا تتعارض المواد والطرق المستعملة مع عملية التعلم نفسها . وتبين أخيراً كيف يمكن توجيه عملية التعلم بأكملها حتى لا يقتصر عمل التعلم على اداء وظيفته فى حال معينة لا يتعداها ، بل فى كل مكان وفى كل زمان ، فى المدرسة وفى خارجها .

(٦) تساعد المدرس على رؤية نتائج أعماله والحكم على ما يؤديه غيره بوسائل لا يمكن الوصول اليها إلاَّ بالرجوع إلى إبحاث هذا العلم . ويضع علم النفس الخاص بالتربية والتعليم القواعد الأساسية والمعلومات الضرورية لفهم عملية التعلم الكاملة بما فى ذلك جميع نواحيها المعقدة ، ويبين أهمية الغايات والحاجة إلى فلسفة عملية فى التربية ، ويظهر المواد والطرق التى يمكن الاعتماد عليها ، ثم يعطينا وسائل معتمدة صالحة موثوق بها لتقدير النتائج . فإن علم النفس الخاص بالتربية والتعليم يساعد على تنمية خطة علمية لحل المسائل الخاصة بمعضلات التربية والتعليم . ثم إنه يساعد ماديًا وعمليًا على تدريب الأفراد ليفكروا على حسب قواعد علم النفس فى جميع مسائلهم الخاصة بالسلوك الانسانى وبالتعليم .

(٧) وتعمل هذه الغايات أيضًا على مساعدة المدرس فى أنها تقدم له المعلومات والطرق الفنية لتحليل السلوك – الخاص بنفسه والخاص بالغير — لتسهيل عملية التوافق الطبيعى وزيادة نمو الشخصية .

(٨) تساعد على ابتكار طرق حديثة فى التعليم ، وتحدد هذه الطرق وتشجع على استمرارها ، كما أنها تنشىء المناهج الخاصة بالارشاد وتضع أنواعًا عملية فى التنظيم والادارة .

الطرق المستخدمة فى مباحث علم النفس الخاص بالتربية

يستعمل علم النفس الخاص بالتعليم الطرق التى تعتمد عليها العلوم فى أبحاثها . ويمكننا وصف الابحاث العلمية بأنها : دقيقة ، مضبوطة ، موضوعية لا تتأثر بالعوامل الذاتية ، يمكن مراجعة نتائجها واعادة عمل تجاربها حتى تثبت صحتها ، قام بها اخصائيون ، وتستلزم حياد القائم بالتجربة من حيث أنه لا يتأثر بآراء الغير ولا يتعصب لناحية من النواحى – وهى نفس المميزات التى تتصف بها أبحاث علم النفس التعليمى .